الترجمة والحياة الاجتماعية العربية

عايدة م. إدريس

كتب الاستاذ محمد كامل الخطيب في جريدة « السفير » (الثلاثاء ٧٩/١/٢٣) يتحدث عن الترجمة والحياة الاجتماعية العربية » ، فاستعرض « موجات » الترجمة منذ عشرين عاما ، بدءا من « ترجمات الفلسفة والادب الوجودي » ، ومرورا بترجمة مؤلفات كولن ولسون ، وانتهاء بترجمة كتب روجيه غارودي وهربرت ماركوز .

ولما كانت « دار الآداب » التي لم يذكرها الكاتب بالاسم ، هي التي قامت بتقديم معظم هذه الترجمات ، ولما كان الكاتب لا يمكن أن يعني سوى دارنا التي يعرف جميع الادباء والقراء انها أصدرت هذه الترجمات ، ولما كان الكاتب يحاول في ما قدمه من آراء أن يشوه مواقف دارنا ويطمس دورها في نشر الوعي الثقافي وفي الاسهام بتعزيز الاتجاه الوطني والقومي في الفكر العربي الحديث ، فانني أود الادلاء بالملاحظات التالية ، بصفتي مديرة النشر في هذه الدار :

١ ــ يرى الكاتب ان الترجمات الوجودية كانت « تحتوي وتعبّر عن فكر البورجوازية الصغيرة » و « انها تحجب عن الحركة الوطنية محتواها الاجتماعي » وذلك « بتقديم فكر هو في التحليل الاخير فكر علمي » .

واضح ان الكاتب حين يقصر غاية الفكر الوجودي على انه تعبير عن فكر البورجوازية الصغيرة ، انما يشوه حقيقة الدوافع التي قامت عليها الفلسفة الوجودية ، وهي التي تستمد توجهها الرئيسي من فكرة « الالتزام » بحرية الانسان المشروطة بمسؤوليته .

ومن المؤسف أن ينساق الكاتب مع بعض الافكار الشائعة عن « الوجودية » التي حطّ من معناها بعض من اعتنقها من جيل التحلل الذي نشأ في فرنسا عقب هزيمتها في الحرب العالمية الثانية . ويتجلى هذا الانسياق في اشارة الكاتب ، فيما بعد ، الى ان الوجودية هي التي وضعت أسس نزعة « المتاهات الفردية والذاتية » . وذلك بالطبع لا يستند على دراسة صحيحة للفكر الوجودي وانما على تشويه وتسطيح لبعض نماذجه. وقد كان أجدر به أن يعتمد عيون الادب الوجودي ، من مثل « دروب الحرية » و « المثقفون » و « الطاعون » التي قدمتها دارنا وهي في مجملها دعوة الى الالتزام بالهموم الجماعية عبر تحليل (نقدي) للهموم الفردية .

ولسنا نفهم قوله ان الترجمات الوجودية تقدم فكرا « هو في التحليل الاخير فكر علمي » . أيكون هو ضد الفكر العلمي ؟

أما تعليله لترجمة هذا الفكر فهو مغالط للحقيقة . ان الاسباب كانت واضحة : اطلاع القارىء العربي على فلسفة كانت وما تزال حلقة من أهم حلقات الفكر الفلسفي الانساني وتطوره . ولا يمكن لأي مثقف معاصر، حتى ولو لم يتوافق معها ، أن ينكر وجودها أو تأثيرها. ولقد صادف أن تجسدت هذه الفلسفة في عبقريتين : سارتر وكامو ، مما أعطى هذه الفلسفة زخمها وبعدها العالمي ... أما الدافع الآخر والاهم فتركيزنا على قطبين هامين كان المثقفون العرب بحاجة ماسة اليهما وهم يخوضون معركة تحررهم من الاستعمار : الحرية والمسؤولية . ثم اننا ، لم نقدم هذه الفلسفة الا بعد دراسة دقيقة وواعية لما يتفق وخدمة قضايانا التحررية. ولذلك فان الناقد يشوه الحقيقة حين يدعي ان هذه الترجمات كانت غايتها ابعاد المثقف عن المساهمة في الحركة الوطنية . ولو عاد الى مسح هذه الفترة ، كما كان ينبغي له أن يفعل كناقد منصف وغير منحاز ، لتأكد له اننا اخترنا ترجمة « عارنا في الجزائر » و « الاستعمار الجديد » و « الجلادون » وهي ترجمات كانت تساهم في تأييد الثورة التي كان يخوضها الشعب الجزائري ونخوضها معه عبر صفحات « الآداب » ، وكتب الدار والنشاطات الخاصة في « اللجنة الوطنية لدعم صمود الجزائر » . لقد كان سارتر وسيمون دو بوفوار وسواهما يقفون في وجه مثقفي اليمين في فرنسا ، ليعلنوا على صفحات أهم المجلات عار فرنسا

أن تبقى الجزائر مستعمرة . وكنا ، رفعا للمعنويات ، بحاجة الى نقل هذه الاصوات ذات البعد العالمي (١) .

وتابعت الـــدار ترجماتها فنقلت « عاصفـة على السكر » لسارتر . وفيـــه يظهر الكاتب بشاعة الفكر الامبريالي في كوبا ويؤيد هذه الثورة التي كانت ما تزال فتية . وحين كنا نقدم هـذا الكتاب وأمثاله ك « ثورة كوبا » لفيديل كاسترو ، « هكـــذا تكلم كاسترو » ، « قصة الثورة الفيتنامية » ، « تشريح جثة الاستعمار » ، « التحدي الاميركي » ، « قصة الثـورة الروسية » ، « التسيير الـــذاتي » ، « حرب العصابات » لتشي غيفارا ، « حرب المقاومة الشعبية » لجياب ، وعشرات الكتب غيرها ، انما كنا نقدمها نماذج يمكن للثورة العربية أن تفيد منها . وكنا ، عبر دراساتنا النقدية لها ، نضعها على محك النقد الصريح . فكيف تكون اذن قد خدمنـا الفكر البورجوازي وأبعدنا القارىء عن « محتوى الحركة الوطنية » ؟

٢ ــ ينتقل الكاتب الى ترجمات كولن ولسن فيزعم ان الغاية منها « طرح مشكلة زائفـة ، هي مشكلة الفرد المثقف ، أي البورجوازي الصغير المتعلـم بدل المشكلة الحقيقية ، أي مشكلة التخلف » .

الواقع ان في هذا الطرح بالذات مغالطة واضحة . فان طرح مشكلة الفرد المثقف لا يتناقض بالضرورة مع عـــدم طرح مشكلة التخلف ؛ بل قد يتم تحليل هذه المشكلة الاخيرة عبر تحليل تلك الاولى . هذا اذا سلمنا فرضا بأن مؤلفات كولن ولسن قاصرة على طرح مشكلة الفرد المثقف بمعزل عن المجتمع . أما لماذا ترجمة « كل » ولسن فللسبب الـذي ذكره المؤلف نفسه حين قـال : « لقد ارتبطت كتبي في سلسلة متشابكـــة حتى انه يصعب استيعاب واحد منها دون البقية . اذ انها تتناول موضوعا واحدا من زوايا مختلفة حتى تصل الى الفكرة التي استقطبتها الكتب السابقـــة نفسها . ولقـــد صعقت ... حيـــن حملوني فكـرة «اللاانتماء» » . والمعروف ان « اللامنتمي » تلتـــه كتب عديدة أهمهـا « ما بعد اللامنتمي » . والحق ان هـــذه الكتب هي دراسات موضوعية لنماذج من كبار الكتاب الاوروبيين، تتيح للكاتب العربي اطـــلاعا موسوعيا عريضا ، وهي تمثل الصراع النفسي والعقائدي الـذي مرّ فيه هؤلاء العباقرة ليجدوا « معنى » لحياتهم وخلاصا لها وحلولا لأزماتها . وليس صحيحا عـلى الاطلاق انها « مشكلات زائفة » لمجرد انها « ذاتية » . صحيح ان الكاتب يؤكد على « الذاتية » وعلى قدرة الفرد في تغيير مسار الحياة والتاريخ ، ولكنه لا يلغي عـــلى الاطلاق دور المجتمع وتأثيره على الفرد . والواقع ان هذا الكاتب مـن أكثر المؤلفين المعاصرين نقدا للمجتمع وتحليـــلا لمساوئه ، فضلا عن انه تقدمي النزعة منحاز للانسان المضطهد . ولو درسنا كتـــابه « اللامنتمي » دراسة موضوعية ، لتأكد لنا انه حين يقدم نماذج اللامنتمين انما لكي يدين اللاانتماء ، لا لكي يبشر به .. أما تأكيده على الذاتية ، فليس عيبا يلصق به . ان ذاتية الفرد يمكن أن تكـون حقيقة مطلقة ، كما يمكن للمجتمع أن يكون هو أيضـا حقيقة مطلقة . واطلاعنا غير المتعصب يمكن أن يوصلنا الى حقيقـــة ثالثة هي التفاعل الجدي بين الذاتيـة والمجتمع . ترى ، لو لم يوجـــد في التاريخ شخصية كماركس أو لينين ، هل كان يمكن للماركسية أن تحظى بمثل هذه القيمة فتغير مجرى تاريخ نصف سكان الكرة الارضية ؟ والصحيح أيضا ان ماركس ولينين ما كـان لهما أن تتفتـــح عبقريتهما لو لم يكونا نتـــاج حضارة القرن والمجتمع الذي حضنهما فأخذا منه وتمردا عليه.

٣ ــ يدين الكاتب ترجمتنا لـ « ماركوز » أيضا . والواقع ان تحليله لفلسفة ماركوز مغلوطـة ومشوهة . وما يهمنا هنا التأكيد على اننا لم نكن نقـــدم ماركوز لنتبنى آراءه ، بل لنطلـع المثقفين العرب عليها ، لكي لا نظل ندفن رؤوسنا كالنعامة . من أجل ذلك أصدرنا لمحمود أمين العالم كتابا يدحض فيه فكر ماركوز وينعته بفلسفة « الطريق المسدود » . ان هذا الحوار والجدال بين وجهات النظر المختلفة (التقدمية أساسا) تتيح لنا اكتشاف النظرة الاكثر صوابا .

٤ ــ أما ادانة الكاتب لترجمتنا غارودي فهي بيت القصيد ! ولعله انما كتب مقـاله كله ليصل الى هـذه النقطة . باعتبـــار نه لا يقرّ ما يسمى « انحرافا عن الخط » . ويهمنا أن نوضح ، ما وضحناه عند تقـديم هذه الترجمات بأن الغاية الرئيسية « اطلاع القراء العرب على جانب من الصراع الفكري يساعد المثقفين العرب على اختيار الطريق الـــذي يسلكونه لتكوين مفاهيمهـم ونظرياتهم الخاصة وهذا لا يعني انهـا تتبنى آراء المفكر الفرنسي » .

هل يمكن للفكر العالمي أن يتجاهل غارودي لمجرد أن فصله الحزب الشيوعي الفرنسي مـــن لجنته ؟ هل تنتفي صفة « التقدمية » عنه لمجرد أن كانت له تحفظات تمس العقيدة الماركسية من حيث هي مبـدأ لا تكتيك ؟ لقد اكتشف غارودي ، كما اكتشف ماركوز كما اكتشف دوبريه ، ان المفكر لا يمكن أن يؤطر ، وان حريته الفكرية تدعوه لان يبحث عن الحقيقة ويعلنها أنى وجدها ، حتى ولو تعارضت مع مفـهوم حزبه . ولغارودي الحق في

---

(١) هذا في الوقت الذي كان فيـــه الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي في فرنسا لا يؤيدان نضال الجزائر التأييد المطلوب منهمـا كحزبين يناهضان الامبريالية والاستعمار !

ان يعلن عن اجتهاده الذي بناه بعد سنوات من المعاناة والنضال والتفكير والعودة الى « الفلسفة الأم » ، ومن حقنا أن نستمع اليه ، كما استمعنا اليه في كتابه « كارل ماركس » . ومن الممكن الاستفادة من تجربته . لقد رأى مثلا ان الدين ليس دائما أفيونا للشعوب ، بل يمكن أن يغدو عامل تحرر وتحرير . وقد أعطى لذلك مثلا حرب الجزائر التحررية . ورأى ان التقدم العلمي والتكنولوجي يخضع الانسان حتى يستعبده ويفرغه من محتواه الانساني ، فحذر من هذا التقدم المريع ، لا بتحطيم المبدأ العلمي ، وانما بالتفكير بالهاوية التي يسير اليها العالم النووي والذري ..

قد يقال اننا لم نترجم الا لمن كان لهم تحفظات على هذا الفكر . والحقيقة اننا ، بموضوعية تامة ، قدمنا الجانب الايجابي . وباستطاعة الكاتب العودة الى فهارس الدار للتأكد من ذلك . ولكي أوفر عليه الجهد أذكر على سبيل المثال « المرأة والاشتراكية » ، « النشاط الجنسي وصراع الطبقات » ، « أصول الفكر الماركسي » ، « الاسس الاخلاقية للماركسية » ، « الانسان الاشتراكي » و « صين ماو » وسواها . كما نشرنا لعدد من الكتّاب العرب الماركسيين أمثال محمود امين العالم ، وانور عبد الملك ، ومحمود درويش ، وسميح القاسم ، وسالم جبران ، وسعدي يوسف ، وبلند الحيدري ، ويوسف الصائغ ، وحنا مينا .

أتكون دار الآداب ، حين تنشر هذه الكتب ، انما تخدم البورجوازية الصغيرة وتبعد « الفكر الاشتراكي » على حد تعبيره ؟

ان الخط العام لسياسة النشر عندنا يتلخص في تقديم كل ما يخدم الانسان العربي في تحقيق ذاته وتكوين ثقافته . وليس هو بالتالي « أحادي النظرة » ، بل يرفض التقولب في فكر مؤطر محكوم بنزعة عقائدية واحدة أو حزبية ضيقة . اننا نؤمن بضرورة أن نشرع للقارىء جميع النوافذ ، يشرف منها على جميع النزعات ، والاجتهادات ، بحيث تتكون له ، أولا وقبل كل شيء ، ثقافة عامة يستطيع انطلاقا منها أن يختار . اننا بالطبع لا نقدم الا ما ينمي نزعات التحرر والمسؤولية والالتزام سواء عن طريق الترجمة أم التأليف . اننا نؤمن بأن القارىء العربي يفيد من تراثه الثوري الضخم ، لذلك قدمنا له نماذج عن الثورات العربية في « ١٠ ثورات في الاسلام » و « الكواكبي المفكر الثائر » ، وسواها من الكتب القيّمة ، كما قدمنا الفكر القومي الوحدوي . واذا كنا نعتبر اننا نستطيع أن نفيد من الفكر الماركسي مثلا ، فاننا لا نؤمن بأن الفكر الماركسي هو المصدر الوحيد الذي ينبغي أن يرجع اليه القارىء ومن دون تحليل أو نقاش .

لقد كان من واجب الكاتب على الاقل أن لا يكون « انتقائيا » ، بل كان عليه أن يذكر ان الدار التي قدمت سارتر وسيمون دو بوفوار وكولن ولسن قدمت كذلك ميشال عفلق وعبد الله عبد الدائم وخليل حاوي وسليمان العيسى وأحمد حجازي وغسان كنفاني واسماعيل فهد اسماعيل ورجاء النقاش والياس خوري ويحيى يخلف وعبد الرحمن منيف وسعد الله ونوس . لو فعل ذلك لأتاح المجال أمام القارىء ليحكم موضوعيا على سياسة الدار النشرية فلا يذهب الى اتهامها بالهاء القراء عن بحث أوضاعهم « المتخلفة » ، و « تعاليهم عن الواقع » . انني أحيله على دراسة هذه الحقبة الممتدة على فترة عشرين عاما لأعيد الى ذاكرته هذه الاسئلة : من ساهم في محاربة جميع أشكال الاستعمار الثقافي ؟ من وقف في وجه المجلات الادبية المشبوهة ؟ من حارب الحرف اللاتيني والدعوة الى تفكيك وحدة الامة العربية عن طريق استبدال الفصحى بالعامية ؟ من ساند الثورات العربية وحارب أعداءها وغنى لانتصاراتها بدءا من ثورة يوليو مرورا بثورة الجزائر والعراق والمقاومة الفلسطينية وأخيرا تدعيم الموقف الثوري للبنان عربي تقدمي ؟

٥ ــ يتساءل الاستاذ الكاتب في آخر مقاله : « أي موقع اجتماعي نختار ونحن نمارس الترجمة ؟ » .

ان جوابنا على هذا السؤال هو اننا نعي وعيا كاملا الموقع الاجتماعي وغير الاجتماعي الذي نختاره . وهو في مطلق الاحوال الموقع الذي يقدم للقارىء ثقافة شاملة (وليست شمولية) تسمح له بأن ينمي كل أبعاده ونزعاته القومية والاشتراكية والتقدمية والانسانية .

٦ ــ تتردد في مقال الكاتب نبرة تهكمية تتناول « مثقفي البورجوازية الصغيرة » ، تدفعه الى حد اتهامهم بخدمة المعسكر الامبريالي . والواقع ان مثقفي البورجوازية الصغيرة في بلادنا العربية كان لبعضهم الدور المشرف في حركة التحرر الوطنية . فقد فرض الوضع الاجتماعي الذي وجدوا أنفسهم فيه أن يكونوا ، دون سواهم من الطبقات الفقيرة ، قادرين على الانتقال من الامية الى التعليم . فلعبوا دور التعريف والتحريض ونشر الافكار التقدمية والثورية . ذلك ان « طبقة عاملة » بالمعنى الماركسي للكلمة لم تكن قد نشأت بعد ! ولم يكن لها التأثير على الصعيد الاجتماعي والثقافي . واذا رجعنا الى مؤسسي الاحزاب العمالية والشيوعية في بلادنا لوجدنا ان معظم منظريهم ومثقفيهم كانوا من البورجوازية الصغيرة . ومن الانصاف ذكر ما عانته هذه « البورجوازية الصغيرة » التي انتقلت بأغلبيتها الساحقة بفضل ثقافتها من موقع الفقر أو « الوسط » الى وضع أفضل ، يتلخص في تأمين حد أدنى من حياة باتت مطلبا طبيعيا ومؤمنا في معظم الدول الراقية .

انها لفكرة خطرة تلك التي يستند اليها الكاتب ، والتي تتلخص في احتكار الوطنية لفئـــة معينة دون سواها من أبناء الشعب ، وهي نظرة مبنية على أساس فئوي متعصب أحادي الجـــانب ترفض أن تقتنع بأنها ليست ولا يمكن لها أن تكون الا جزءا من كل .

٧ ـ ونود أخيرا أن نعـــلم القارىء الكريم أن « دار الآداب » التي يسوق اليها الكاتب كل هذه التهم هي التي نشرت كتـــاب الكاتب نفسه (الاستاذ محمد كامل الخطيب) « عالم حنا مينه الروائي » الـذي ألفه بالاشتراك مع الاستاذ عبد الله عيد .

ولعل في هذا أفضل مؤشر عـلى سياسة الـدار النشرية : اننا نقدم كل ما نعتبره يحمل خدمة للمثقف العربي ، حتى ولو لم نكن نتبناه بالضرورة ..

ولكن ليسمح لنا الكاتب نفسه أن يوضح لنا كيف يقبل نشر كتـــاب في دار يدين اتجاهها في الترجمـة والنشر ؟

عايدة مطرجي ادريس

دار الآداب

تقدم

الطبعة الجديدة من مؤلفات

روجيه غارودي

★

- **ماركسية القرن العشرين** — **ترجمة نزيه الحكيم**
- **منعطف الاشتراكية الكبير** — **ترجمة ذوقان قرقوط**
- **البديـل** — **ترجمة جورج طرابيشي**
- **مشروع الامل**